الـدرس الثالـث: أبـو أسـحاق إبـراهيم بـن علـي الحصـري القيروانـي (ت 413هـ الموافق 1061م) / زهر الآداب وثمر الألباب

أديـبٌ، مؤلِّـفٌ، ونـاثرٌ بليـغ. عاصـر الشـاعر المشـهور؛ أبـي الحسـن الحصـري؛ صـاحب الداليـة المشـهورة: "يـا ليـلَ الصّـبّ" يُعـدُّ كتابـه "زهـر الآداب وثمـر الألبـاب" أحـد أمهـات كتـب الأدب، لـم يتنـاولْ فيـه المؤلّـف شـيئاً مـن النحـو والصـرف واللغـة، بـلْ خصّصـه لفنـون القـول شـعراً ونثـراً، ومـا يتصـل بـذلك مـن ضـروب البلاغـة وجمـال الصـياغة، وحسـن الإنشـاء، وجـودة الخطابـة. يقـوم الكتـاب علـى الجمـع والروايـة؛ دون اعتمـاد مـنهجٍ معـيّن، حيـث جمـع الحصـري ألوانـاً مـن النصـوص والأخبـار تعـود إلـى أزمنـة مختلفـة، متباعـدة، ثـمّ ألّـف بينهـا؛ دون أدنـى ترتيـب. فهـو تـارة يتحـدّثُ عـن الزبرقـان بـن بـدر، وتـارة عـن عُليـة بنـت المهـدي، وتـارة عـن الرسـول الأعظـم؛ صـلّى الله عليـه وسـلّمَ، وبعـض أقوالـه فـي الشـعر والبيـان، ثـمّ يعـود للحـديث عـن الشـاعر زهيـر بـن أبـي سـلمى؛ فجـاءت تلـك الفوضـى الأدبيـة المعرفيـة؛ التـي تحـطُّ بالقـارئ فـي أزمنـة متبعثـرة؛ متناقضـة، غيـر أنهـا جميلة، يانعة، يَطرَبُ لها الفِكر، وتُعانِق سُلطة الوِجْدان.

بعـض القـدماء؛ وصـفوا هـذا الكتـاب بأنـهُ مُؤَلّـفٌ؛ جمـع كـل غريبـة. وأنّ الغالـب علـى موضـوعات الكتـاب؛ ميـزة الجِـدِّ، إذْ هـو محصـورٌ فـي دائـرة الخلـق والـدّينِ، بعيـداً عـن العبـث، بسـبب مـا ورد فيـه مـن أخبـار الرسـول صـلّى الله عليـه وسـلّم، والصـحابة والتـابعين، وأقـوالهم. وقـد صـنّف الحصـري كتابـاً آخـر؛ سمّاهُ "جمـع الجـواهر فـي المُلَـح والنـوادر" وهـو الـذي يُعْـرف باسـم: "ذيْـل زهـر الآداب" وفيـه وردت مختـارات لعلّهـا تكـون مُنفلتـة من سياق الجدّ؛ الذي لمسناه في الكتاب الأوّل.

يتحـدّث الحصـري عـن "زهـر الآداب وثمـر الألبـاب" فيقـول: « هـذا كتـابٌ؛ اختـرتُ فيـه قطعـة كافيـة مـن البلاغـات فـي الشـعر والخبـر والفصـول،

والفِقَرِ مما حسُنَ لفْظُهُ ومعناهُ، ... وليس لي في تأليفه من الافتخار؛ أكثر من حسن الاختيار، واختيار المرء قطعة من عقله ! »

مختارات من زهر الآداب وثمر الألباب:« قال بعض البلغاء: في اللسان عشر خصالٍ محمودة: أداةٌ يظهر بها البيان، وشاهدٌ يُخبر عن الضمير، وحاكم يفصل الخطاب، وواعظ ينهى عن القبيح، وناطق يردّ الجواب، وشافعٌ تُدْرَك به الحاجة، وواصفٌ تُعْرف به الأشياء، ومُعْرِبٌ يُشْكَر به الإحسان، ومُعَزٍّ تذهب به الأحزان، وحامِدٌ يُذْهِبُ الضغينة»

اعتنى الحصري بموضوعات الوصف؛ عناية ملحوظة، حيث ازدحمت في الكتاب ؛ نصوص وصف الطبيعة: الليل الماء، البرق، الرعد... ووظف أثناء تقديمه لهذه النصوص؛ أسلوب عصره؛ القائم على كثافة السجع.

جاء الكتاب في مُجَلَّدَيْنِ؛ وتجاوزت عدد صفحاته ستّ مائة وثلاثين صفحة، حسب طبعة بيروت الرابعة.

قال ابن خلدون عن كتاب "زهر الآداب وثمر الألباب": « ... وعندي؛ أنّ زهر الآداب، أغزر مادّة، وأكبر قيمة، لأنّ ذوق الحصري ذوْقٌ أدبيٌّ صِرْفٌ..»